السبت ٢٥/٤/٢٠١٥ - السنة الحادية عشرة - العدد ٣٩٦٧
Al Masry Al Youm - No. 3967 - Saturday 25/4/2015
المصري اليوم

بالصور.. قصة ١٣٣ عاماً من الأطماع فى «أرض الفيروز»

فى أحد فنادق القاهرة، جلس المفكر والمؤرخ الذى يقترب من عقده السابع، أمام شاشة «اللابتوب»، يشرب قهوته الصباحية، ويتابع الصور التى جمعها من رحلاته فى مختلف الدول، ليدعم بها دراساته وكتبه، التى منحته لقب «عراب حق العودة»، الذى يحمل فى وجدانه ودراساته الكثير عن مصر، مثلما لديه الكثير عن فلسطين.

د.سلمان أبوستة، ابن «بئر سبع» الفلسطينية، لا يخفى حبه لمصر، التى يعتاد زيارتها من وقت لآخر، رغم إقامته فى العاصمة البريطانية لندن، حيث يترأس «هيئة أرض فلسطين»، يرتشف من قهوته رشفة، يفتح ملفاً على جهاز «اللابتوب»، يستعرض صورة لرجل بملامح أوروبية، يرتدى زياً عسكرياً، ويعلو رأسه «طربوش»، يرتشف رشفة من قهوته، ويروى قصة صاحب الصورة، وعلاقته بسيناء.

يطالع صورة لامرأة أوروبية، ترتدى ملابس تنتمى إلى سنة ١٩٠٦، يرتشف رشفة من قهوته، ويشير إلى المرأة «اسمها وينفريد، كانت تعشق التصوير الفوتوغرافى، واصطحبها زوجها إلى سيناء، وهناك ومن خلال سعيها لتوثيق كل شىء بالكاميرا الخاصة بها، التقطت صورة لأحد أعمال زوجها فى سيناء، لكنها ليست كأى صورة، لقد دعمت صورة وينفريد موقف مصر، فى واحدة من أشرس المفاوضات، التى انتهت بتأكيد أحقية مصر فى طابا». وبين كل رشفة ورشفة، وصورة وصورة، يستعرض د.سلمان أبوستة، المؤرخ الفلسطينى، أجزاء غير معروفة من تاريخ سيناء، ليروى لـ«المصرى اليوم» بالصور، تاريخاً من الأطماع اليهودية والبريطانية والتركية، فى أرض الفيروز، تتحدث كل صورة عن تفاصيلها فى السطور التالية.

محمد طلعت الهوارى

إدوارد هنرى بالمر

نعوم شقير

بالمر أثناء مهمته السرية فى سيناء

العثمانيون والبريطانيون.. تضاربت المصالح وجمعهما حلم السيطرة

د. سلمان أبوستة: سيناء تمتعت بأهمية استراتيجية لدى الإنجليز.. والأتراك استخدموا الدين لاستمالة القبائل

تفجير بسيارة مفخخة، هجوم مسلح على نقطة أمنية، أو معسكر تابع للقوات المسلحة أو الشرطة، وحظر للتجوال، ومعارك طاحنة من أجل استعادة الأمن، هكذا الحال فى سيناء هذه الأيام. وصفه الرئيس عبدالفتاح السيسى، فى كلمته بمناسبة الذكرى ٣٣ لتحرير سيناء بقوله: «تحل علينا ذكرى تحرير سيناء هذا العام، وهى تواجه إرهاباً يحمل نوايا خبيثة، يسعى لتحقيق مصالح ضيقة، على حساب مستقبل وآمال شعب مصر، يروع الآمنين ويهدد الاستقرار، ويضمر الشر لوطن طالما اعتاد شعبه الأمن».

وبين استهداف سيناء من قوى الظلام فى العصر الحديث، وقوى الاستعمار فى الماضى القريب، سطور منسية فى دروب التاريخ. اليوم ونحن فى العام ٢٠١٥ نحتفل بمرور ٣٣ عاماً على تحرير سيناء، من الاحتلال الإسرائيلى، نعود بالزمان ١٣٣ عاماً إلى الوراء، فى محاولة لتقديم بعض السطور المنسية، التى يسدل عليها الستار المؤرخ الفلسطينى، د.سلمان أبوستة، فى صور يُنشر بعضها لأول مرة على صفحات الصحف المصرية.

فى سلسلة من اللقاءات امتدت على مدار أيام، بأحد فنادق القاهرة، استعرض «أبوستة» مع «المصرى اليوم»، بعضاً مما لديه من وثائق وصور، حول محاولات اقتناص «أرض الفيروز»، بدأها بصورة مرسومة باليد، لرجل فى العقد الرابع من عمره، بملامح أوروبية، يرتدى ملابس عربية، يعلو رأسه «طربوش»، بلحية متوسطة الطول، «هذا أول لورانس للعرب» هكذا يصفه «د. أبوستة»، يرتشف رشفة من فنجان القهوة ويسرد قصته.

«اسمه (إدوارد هنرى بالمر) – وُلد عام ١٨٤٠ فى كامبريدج – ولعب دوراً مهماً فى عام ١٨٨٢، عندما جاء الإنجليز لاحتلال مصر، فالإنجليز لم يأتوا لمساعدة الخديو توفيق ضد أحمد عرابى، بل دكوا الإسكندرية وضربوها بالأسطول، ثم احتلوا الضفة الغربية من قناة السويس»، يستكمل «أبوستة»: «فى حين كان عرابى فى الشرقية، توجه (بالمر) الذى يجيد اللغة العربية، إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، فيما كان الأسطول البريطانى يبحر متجهاً إلى الإسكندرية، توجه (بالمر) من يافا إلى غزة، مروراً بسيناء، وصولاً إلى السويس، وقابلته فرقاطة بريطانية فى خليج السويس، أعطته أكياس ذهب وضابطين، لمهمة محددة».

يسرد «أبوستة» تفاصيل «مهمة بالمر السرية»: «كانت مهمته منع القبائل العربية فى سيناء، من الثورة فى صف أحمد عرابى، ضد الخديو، وكانت مساجد غزة تدعو لعرابى بالنصر، وخاف الإنجليز من انضمام القبائل العربية فى سيناء إلى عرابى، ومنع الملاحة فى قناة السويس».

رفضت القبائل العربية طلب «بالمر»، يقول «أبوستة»: «قالوا له: لا نقف مع الكفار ضد إخواننا من المسلمين، وترصد له البعض فى الجبال، وقتلوه وأخذوا منه ما معه من ذهب، لتنتهى بذلك قصة أول جاسوس دفعت به بريطانيا لسيناء». على الرغم من مقتل «بالمر»، إلا أن الاهتمام البريطانى، بشبه جزيرة سيناء، لم يقف عند هذه الواقعة، لكنه امتد إلى عام ١٩٠٦.

مع رشفة من فنجان القهوة، يستعرض «د.أبوستة» صورة جديدة، لضابط نحيف، بملامح أوروبية، وشارب يتسق مع بدلته العسكرية، يعلو رأسه «طربوش»: «اسمه (إيه سى باركر)، ابن شقيقة اللورد كتشنر، المعتمد البريطانى فى مصر أثناء الاحتلال، وعلى عكس باقى الضباط فى الجيش المصرى وقتها، قرر ذلك الشاب التوجه إلى سيناء، ليصبح مفتش سيناء العام، وعاش هناك بصحبة زوجته، وبمجىء الحرب العالمية الأولى، أصبح مديراً للمخابرات المدنية للقوات البريطانية الموجودة فى مصر وفلسطين».

وينفريد زوجة باركر

«باركر» أول مفتش بريطانى لشبه الجزيرة وصورة لزوجته تنصف مصر فى مفاوضات طابا

يسرد «د.أبوستة» قصة «باركر» قائلاً: «أسس شرطة فى سيناء، يلبسون عقالا، وبنطلونا أسود، وحزاماً، وهو نفس الزى الذى استعمله البريطانيون لشرطة بئر سبع، فى جنوب فلسطين، وفى شرق الأردن».

يوضح «أبوستة» أهمية «سيناء» لبريطانيا فى ذلك الوقت قائلا: «هذه المناطق ثلاث تبدأ من عند خط قناة السويس، إلى سكة حديد الحجاز، من دمشق للمدينة المنورة، وكلها مناطق كانت تسيطر عليها بريطانيا حتى الحرب العالمية الثانية، وكان هناك نظام قضائى للعشائر، إذا كان بينهم خلافات كانت تعقد المحكمة، إما فى العريش أو فى بئر سبع شرقاً، أو فى معان، ولذلك كانت سيناء بالنسبة لمصر إضافة بريطانية، لأنه يهمهم أن سيناء تكون فى يدهم».

يستعرض «أبوستة» صورة أخرى، هذه المرة لامرأة أوروبية، ترتدى بالطو طويلا، وقبعة تحميها من أشعة الشمس، وتستند إلى «شمسية»، تقف فى بقعة من الصحراء، وفى خلفية الصورة رجل أعرابى، و٤ جمال: «اسمها وينفريد، زوجة باركر، كانت تعشق التصوير، وعاشت معه فى سيناء، وقامت بتصوير أحد أعمال زوجها، وهى الصورة التى كان لها دور كبير فى مفاوضات طابا».

بعيداً عن باركر وزوجته وينفريد فى سيناء، وعلى الجهة الأخرى داخل فلسطين، كانت إمبراطورية أخرى، تتشكل لديها أطماع تجاه «شبه الجزيرة».

فى نفس التوقيت، عام ١٩٠٦، عين الأتراك «متصرف القدس»، واسمه «أكرم بك»، ويتبع والى الشام فى دمشق، و«المتصرف» – كما يقول «د.أبوستة» – درجة أقل من «الوالى»، ويضيف: «كان نطاق صلاحيات «متصرف القدس» يشمل القدس، وجنوب فلسطين وسيناء، وأقام «المتصرف» احتفالاً كبيراً عام ١٩٠٦، جمع فيه قبائل سيناء وفلسطين، ووزع عليهم «الخِلَع» أى الملابس، ونسخة من القرآن، وطالبهم بضرورة التوحد كمسلمين ومحاربة الإنجليز فى مصر، فى محاولة لتأمين الأتراك أنفسهم فى بلاد الشام من هجمات محتملة للإنجليز.

«إى سى باركر» بالزى العسكرى

وفى مصر كان الأمر يقلق البريطانيين، كما يؤكد «د.أبوستة»: كانت هناك تقارير يعدها ضابط يدعى «براملى»، وكان يرسلها لرئيس المخابرات الحربية الأميرالاى «أوين»، الذى تولى فصل رفح عن أم الرشراش، وكان يعاونه شخص شامى تمصر بعد ذلك اسمه «نعوم شقير»، الذى سيكون له دور مهم فيما بعد، وتلخصت مهمة «براملى» فى مراقبة القوات العثمانية.

بين محاولات الأتراك استمالة القبائل العربية فى سيناء، ومحاولات البريطانيين تثبيت وجودهم فى شبه الجزيرة، كان أهل سيناء فى القطاع المسمى حالياً «ج»، يمتدون على جانبى الشريط الممتد من رفح إلى العريش، وجنوباً حتى طابا وأم الرشراش وشرم الشيخ، وأصر القائمقام التركى فى «بئر سبع»، على أن يدفعوا الضرائب له، لأنهم كانوا فى نطاق «تفتيشه»، كما يذكر «د.أبوستة».

عن أسباب اهتمام الأتراك بسيناء فى ذلك الوقت، يقول «أبوستة»: كان الأتراك أعادوا بناء مدينة «بئر سبع»، عام ١٩٠٠، بطراز حديث تضم مساكن لموظفى الدولة، والأهالى، وضمت مسجد ومدرستين، وخط سكة حديد من القدس إلى العوجة، وتقع الآن «عوج الحفير» فى منتصف المسافة بين رفح وأم الرشراش، التى يسميها الإسرائيليون «نيتسانا»، وهى على الخط الأوسط الرابط بين مصر وفلسطين، ويشمل القدس، الخليل، بئر سبع، العوجة، نخل فى وسط سيناء، والإسماعيلية، وحصَن الأتراك هذا الخط تحصيناً كبيراً، بمواد تموينية وقوات عسكرية.

مع تزايد الاهتمام البريطانى بسيناء، والأطماع التركية فى شبه الجزيرة، كانت المؤشرات تدل على قرب مواجهة حتمية. يقول «د.أبو ستة»: «هدد الإنجليز السلطان العثمانى، وأرسلوا فرقاطة بحرية عند جزيرة فرعون، فى مقابل أم الرشراش، وفرقاطة أخرى أمام رفح، وأجبروه على قبول الخط الإدارى، بعد تهديده بتدخل عسكرى بريطانى بالقوة إذا رفض، ونظراً لضعفه الشديد وافق السلطان العثمانى».

وتصاعدت الأحداث قليلا، كما يوضح «د.أبو ستة»: «رفض القائد العثمانى فى العقبة (مختار باشا)، وكذلك الضباط الأتراك قرار السلطان، وكادت تقوم ثورة، وقبلوا بعد ذلك بترسيم الحدود، وتشكلت فرقة مشتركة مصرية – تركية، تضم ضباطاً إنجليزاً، وسكرتير لجنة ترسيم الحدود (نعوم شقير)، وبدأوا تخطيط الحدود، وكانت الرؤية المشتركة وضع عمود على رأس كل جبل، يستطيع الطرف الآخر رؤيته».

بريطانيا أرسلت أول جاسوس لتحريض القبائل ضد «عرابى» والسيناوية قتلوا «بالمر» ورفاقه

يتابع «أبو ستة»: «الخط الإدارى الفاصل فى عام ١٩٠٦، ليس له نظير فى التاريخ، وأصر عليه الإنجليز لأنه أبعد خط استطاعوا الوصول إليه، ولأن رفح كان بها عمودا جرانيت من قديم الزمان، بعد ١٩٠٦ أقاموا نقاطاً للحدود، وشيدوا أعمدة صناعية».

يستعرض «أبو ستة» صورة أخرى، هذه المرة صورة لمجموعة من العمال يعتلون قمة جبل، أثناء تشييدهم عموداً من الحجارة والخرسانة، صورتها «وينفريد» زوجة «باركر»: «كما ذكرت تم تشييد أعمدة، كان من بينها (عمود باركر) المطل على خليج العقبة، والمعروف باسم (العمود ٩٠)، وكان بعده العمود ٩١ على البحر مباشرة».

يقفز «أبو ستة» بالزمان ٨٢ عاماً، تحديداً عام ١٩٨٨، ويقول: «شهدت مباحثات طابا خلافات على ١٥ نقطة، لكن مساحات الاختلاف كانت غير جوهرية، بعكس النقطة ٩٠، حاول اليهود فى المفاوضات اللعب على وتر، أن الخط الإدارى لا يسير على استقامته، حتى تقع النقطة ٩٠ فى حدودهم، ليأخذوا طابا». يعود مرة أخرى إلى صورة «بناء العمود»: «الصورة التى التقطتها وينفريد، كانت أثناء بناء العمال عمود باركر، أو النقطة ٩٠، وكان لها القول الفصل، إذ أثبتت أن العمود فى الحدود المصرية، وبالتالى طابا مصرية».

المحاولات التركية والبريطانية للسيطرة على سيناء، لم تقف عند حدود الخط الإدارى عام ١٩٠٦، يقول «أبو ستة»: «جمال باشا القائد التركى، فى عام ١٩١٥، ومع بدايات الحرب العالمية الأولى، حاول غزو مصر بحملة كبيرة، والإنجليز دافعوا عنها، فى بورسعيد، وتلقى الجيش التركى هزيمة، وجاء بقوات كبيرة عبرت سيناء بالكامل، وخط إمداداته كان بعيداً، وكانت فكرة الأتراك استعادة مصر ولاية عثمانية، من الإنجليز المحتلين، وكانوا يعتبرونها بمثابة تحرير مصر من الإنجليز، وانقلبت الآية وهُزمت الدولة العثمانية بعد ذلك».

ويضيف: «وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، دخلت بريطانيا فلسطين، حتى تكون قاعدة متقدمة عند أقرب نقطة فى مواجهة الدولة العثمانية، ونظرا لمحاولات الأتراك مهاجمة قناة السويس، رد الإنجليز بجعل مصر تحت الحماية البريطانية، وحاولوا عزل مصر عن العالم العربى وفى فبراير سنة ١٩١٧ بواسطة قوة عسكرية اسمها «القوة العسكرية المصرية»، وكانت قوة بريطانية، وجلبوا ١٥٠ ألف عامل مصرى بنظام السخرة، أنشأوا السكة الحديد، من القاهرة إلى غزة، ثم إلى حيفا. ووصلوا مياه النيل للجيش البريطانى حتى غزة».

فى ختام حديثه، ومع آخر رشفة من فنجان القهوة، يؤكد «أبو ستة» أن الإدارات المصرية المتعاقبة فتحت الباب دائماً، أمام الغير للاستحواذ على سيناء، قائلاً: «عندما تم حفر قناة السويس، منعت أهالى سيناء أن يكونوا جزءاً من مصر فعلياً، بعد أن كانت القوافل تنطلق بالجمال من العريش إلى القاهرة، وكان هناك تجار اسمهم «العقيل»، يرسلون الجمال فى سيناء والجزيرة العربية والشام، ويعودون محملين بالحرير والأقمشة والسكر وغيره، لكن صار هناك ذلك المانع المائى، فأصبح بمثابة حدود جديدة لمصر».

صورة «عمود باركر التى ساهمت فى حسم قضية طابا

سيناء واليهود.. للاحتلال أوجه كثيرة

وثيقة بريطانية: «كرومر» رفض طلب بناء مستوطنة يهودية فى سيناء عام ١٩٠٢

فى وقت سعى فيه الغزاة على مدار التاريخ، لاحتلال مصر نظراً لأهميتها الجغرافية والاستراتيجية، حاول أغلبها دخول مصر عبر بوابتها الشرقية، من خلال سيناء، ومهما اختلفت أسباب الغزاة ودوافعهم، لكن تظل المحاولات اليهودية أكثرها خصوصية، فهى محاولات سعت دائماً لإيجاد موطئ قدم فى مصر، وبشكل خاص فى سيناء، لكن لأسباب عقائدية بالأساس.

تاريخ المحاولات اليهودية لاستيطان سيناء معروف فى مجمله، لكن بعضها كان له صبغة خاصة، كما يؤكد المؤرخ الفلسطينى، د.سلمان أبو ستة، ويقف عند بعض هذه المحاولات، بين عامى ١٩٠٢، و١٩٠٦. ويقول: «فى عام ١٩٠٢، طلب اليهود من المعتمد البريطانى، اللورد كرومر، السماح ببناء مستعمرة لهم فى سيناء، تحت مظلة بعثة تبحث عن المياه، وتريد بناء مستعمرة يهودية فى وسط سيناء».

وتظهر وثيقة، حصلت عليها «المصرى اليوم»، موقف «كرومر» من الطلب، الذى يوضحه «د.أبو ستة» قائلا: «كان «كرومر» على درجة عالية من الدهاء، وأخبر اليهود بأن الدراسات تؤكد وجود صعوبات فى العثور على المياه، فى هذه المنطقة، وإذا أرادوا بناء مستعمرة فعليهم التخلى عن الجنسية الأوروبية، ويصبحون رعايا عثمانيين، ويتبعون القانون المصرى، حتى لا يكون لهم حقوق مثل اللجوء إلى القضاء المختلط، وبالتالى رفضوا».

«أبو ستة» يوضح حقيقة موقف «كرومر» قائلا: «طبعاً لم يكن الرفض من أجل عيون مصر، ولكن نظراً لأهمية سيناء الاستراتيجية لدى الإنجليز وقتها».

لم تقف محاولات اليهود عند هذه المحاولة فقط، وإنما عادوا مرة أخرى بطلب مغاير، فى عام ١٩٠٦، يقول «أبو ستة»: «هذه المرة ذهبوا إلى مفتش سيناء فى تلك الفترة، وأحضروا وفداً من اليهود الروس والعرب، وتقدموا بطلب لبناء قرية تضم ٦٠ أسرة يهودية، بين العريش والعوجة، وطردهم أهالى سيناء».

وعندما فشل اليهود فى تلك المرة، عادوا مرة ثالثة لكن بعدها بأربعة أعوام، وتحديداً فى عام ١٩١٠، يلفت «أبو ستة» إلى استراتيجية أخرى اتبعوها قائلا: «قاموا بعمل جولة بالمرور على أهل سيناء، وعرضوا مساعدتهم فى بناء مزارع تماماً كما حدث فى فلسطين، بأنهم اشتروا مزارع، من الفلسطينيين، ووضعوا فيها يهودا مدربين على استخدام السلاح، مدججين بالأسلحة والذخائر، كان لهم الدور الأكبر عند إعلان دولة الكيان الصهيونى».

المحاولة الأخطر والأكبر، لا تتعلق بسيناء، ولكنها كما هو فى وثيقة حصلت «المصرى اليوم» على نسخة منها، متعلقة بخط السكة الحديد العثمانى، يوضحها «أبو ستة» قائلا: «عرضوا على السلطان العثمانى ٣,٥ مليون ليرة ذهب، وحصلت على هذه الوثيقة من الأرشيف العثمانى فى اسطنبول، أشادوا فى خطاب له بسكة حديد الحجاز، وأوضحوا له أنها منطقة شاسعة، ويجب أن تكون تحت الحماية».

وأضاف: «عرضوا التكفل بحمايتها، وتوطينها بخمسة ملايين يهودى لتعميرها، ويكونون خدماً للسلطان، وطلبوا أيضا السماح لهم بالصلاة فى القدس، إلا أن السلطان العثمانى قال لهم إن ذلك وقف إسلامى، ولايستطيع أحد منحكم قطعة أرض واحدة فى هذه المنطقة».

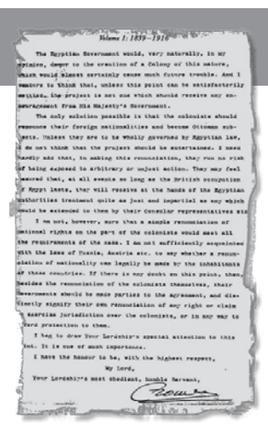

خريطة سكك حديد الحجاز

وثيقة كرومر

خطاب اليهود للسلطان العثمانى